دهشة الصياغة
ورشاقة الصورة
في
شعر نزار قباني

obeikandl.com

obeikandl.com

دهشة الصياغة ورشاقة الصورة

في شعر نزار قباني

نزار قباني ، قيثارة الشعر العربي التي وقعت أنغاما شجية ، شنفت آذاننا وأشاعت البهجة في أرواحنا سنوات طوالا ....

طوف بالمشرق العربي كله حاملاً على كتفيه هموم الإنسان العربي ومعاناته وواضعا قضايا العروبة نصب عينيه ، وفي حقائبه حيثما رجل ، وأينما ألقت به عصا التيار ، فجاء شعره كمبضع الجراح يمر على موضع الألم فيثير الأشجان ويبعث كوامن النفس بما يحدث من ضجيج يلفت الأنظار إلى قضايا العروبة ومعاناتها .

ومن قبيل المصادفة أن يكون مولده مع بداية الربيع ، عندما تتغير الطبيعة وتنقلب من حال إلى حال ، يقول عن نفسه : " يوم ولدت كانت الأرض هي الأخرى في حالة ولادة .. وكان الربيع يستعد لفتح حقائبه الخضراء .." (١) ، ويقول : " هل كانت مصادفة أن تكون ولادتي في هذا الفصل الذي تثور فيه الأرض على نفسها ... وترمي فيه كل أثوابها ؟ أم كان مكتوبا علي أن أكون كشهر آزار ، شهر التغيير والتحولات .." (٢) .

جاء نزار فأحدث تغييرًا في خريطة الشعر العربي ، وخرج عن مألوف أغراضه التي لاكتها ألسن الشعراء من مدح ورثاء وغزل وهجاء ، وظلوا يدورون في فلكها ليبرحونها قرونا طويلة .

لم يقنع بما ألفه كثير من الشعراء ، فتمرد على قوالب الشعر الجامدة ، والأطر المعدة – مسبقا – للقصيدة ، فلم يضع نفسه في قيدها الذي كانت ترسف فيه ، بل

راح يعبر عن واقع أمته ، وحاضرها الذي تعيشه وظروفها التي تمر بها، ويعبر هو نفسه عن هذه الروح الوثابة التي في داخله ، وما في طبيعته من تمرد " كل الذي أعرفه أنني يوم ولدت كانت الطبيعة تنفذ انقلابها على الشتاء ..

وتطلب من الحقول والحشائش والأزهار والعصافير أن تؤيدها في انقلابها على روتين الأرض .." (٣).

نعم كان شعره خروجا عن المألوف ، وعزوفا عن البحيرة التي ركدت حتى أسن ماؤها بما تحمل من أساطير توارثها الشعراء وظلوا يرددونها حتى اعتادتها الأذن وملت سماعها .

كان الوطن العربي – في فترة توهج شاعرية نزار – يتجرع مرارة الألم بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ولا يكاد يسيغها ، وفي الوقت الذي كان كثير من الشعراء يدورون في فلك الاستكانة ، ومعايشة الأمر الواقع ، كان نزار يعيش تمردا على هذه القوالب والصور القديمة ، فبدا صريحا مع نفسه ، واضحا في قصيده ، يحيا بوجه واحد ، ظاهره كباطنه ، وأدرك بحسه الشعري أن الناس في لحظات الهزيمة يحتاجون إلى الوضوح ، ويستريحون للمكاشفة ، يقول : " العالم العربي .. أيها الأصدقاء بحاجة إلى جرعة شعر بعد أن جف فمه .. وتخشب قلبه .. " (٤) :كان هناك انفصال بين كثير من الشعراء وواقعهم ، يعيشون بوجهين ، وجه مع أنفسهم وذواتهم ، ووجه يلقون به الجمهور ، لذا مجت الأسماع كثيرًا منهم ، ولم تعد على استعداد لمشاركتهم فيما يهذلون ، كما رأينا نزارا يحرض على التمرد والخروج من إطار القديم إلى عالم من التغيير والتجديد " إن الشعراء أيها الأصدقاء مدعوون لغرس السنابل الخضراء في كل زاوية من زوايا الوطن العربي " (٥)

وكانت قصيدة (مذكرات عاشق دمشقي) خطوة وثابة في سبيل تحقيق ما أراد ، فجاءت تصويرًا صادقا للواقع المؤلم الذي يعيشه العرب في لحظات الانكسار فنراه يصور حال المحاربين وقد عادوا منهزمين أمام العدو ، وفي طريق عودتهم يمرون بمقابر الأجداد الأبطال الفاتحين ، فيترجم مشاعرهم قائلا :

وقبر خالد في حمص نلامسه ... فيرجف القبر من زواره غضبا

يا ابن الوليد ألا سيف تؤجره ... فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا

ثم يلخص حقيقة المأساة ، وهي أننا نغضب حين نواجه بالحقيقة ، ومن ينطق بها ينبذ أو يطارد ، يقول :

ماذا سأقرأ من شعري ومن كتبي ... سنابك الخيل داست عندنا الأدبا؟

وحاصرتنا وآذتنا فلا قلم ... قال الحقيقة إلا اغتيل أو صلبا

لذلك يرى أن للشعر رسالة تتمثل في ذكر الحقيقة ، وحمل هموم الإنسان والتخفيف من معاناته ، يقول :

الشعر ليس حمامات نطيرها ... نحو السماء ولا نايا وريح صبا

لكنه غضب طالت أظافره ... ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا

ومابرح يردد هذه الرسالة في كثير من قصائده .

أما منهج نزار وطريقته في بنية قصيده ، فله نمطه الذي يتفرد به عن شعراء عصره ، إذ طبعه بطابع خاص جعل له ميزة مختلفة عن غيره ، ولنا أن نتأمل هذا النموذج ، وهو من قصيدة (القصيدة الدمشقية) يقول فيها :

هذي دمشق .. وهذي الكأس والراح

إني أحب وبعض الحب ذباح

أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي
لسال منه عناقيد وتفاح

ويقول واصفا بموطنه:

مآذن الشام تبكي إذ تعانقني
وللمآذن كالأشجار أرواح
للياسمين حقول في منازلنا
وقطة البيت تغفو حيث ترتاح
طاحونة البن جزء من طفولتنا
فكيف أنسى وعطر الهيل فواح؟ (٦)

في هذا النموذج – وغيره من النماذج – في ثنايا شعر نزار نراه يقيم معمارية القصيدة وبناءها على أساس من دهشة الصياغة الشعرية ورشاقة الصورة . فما المقصود بذلك ؟

دعنا نتبينه من خلال تحليل النموذج السابق على سبيل المثال ، وبداية نقرر أنه لا انفصال بين الصورة وصياغة الألفاظ . لأن هذه الأخيرة جزء من مكونات الأولى .

ولو تتبعنا مفردات البيت ودورها في تكوين الصورة في قوله :

أنا الدمشقي لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وأقداح

نجد الفعل (شرحتم) مختار بدقة ، إذ لا يصلح مكانه فعل آخر ، وكذلك الفعل (سال) موضوع بعناية في موضعه ، ثم ارتباط الجملة الشرطية (لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وأقداح) بالجملة الاسمية – قبلها – (أنا الدمشقي)

ليكون الناتج صورة رشيقة جعل فيها الشاعر جسمه شجرة تسيل منها العناقيد والأقداح ، ويمكن أن نتصور ذلك كله من خلال الشكل التالي:(الذي يكون منظومة البيت الشعري السابق) :

جملة اسمية + أسلوب الشرط

(أنا الدمشقي) +(لو شرحتم جسدي لسال منه عناقيد وأقداح)

⇩ ⇩

(فعل شرط مختار بعناية) (جواب شرط مختار بدقة)

من هنا كانت الصياغة المدهشة ، أو دهشة الصياغة وما يترتب عليها من رشاقة الصورة .

" وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني ؟

وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها ؟أو ليست هي سمات لها وأوضاعا وضعت لتدل عليها ؟ " (٧).

وكذا الحال في قول الشاعر :

مآذن الشام تبكي إذ تعانقني وللمآذن كالأشجار أرواح

يبرز التجسيد الشعري ملموسا في هذا البيت ، فالمآذن تبكي ، وتعانق ، مع مابين الفعلين (تبكي) و (تعانق) من ارتباط داخل الصورة الدالة على اللهفة بعد غياب طويل .

ولم يكتف الشاعر بهذه الصورة ، بل أكدها بالتشبيه الذي جاء بعد واو العطف (وللمآذن كالأشجار أرواح) .

obeikandl.com

وتتضح منظومة هذه الصياغة من خلال التمثل التالي :

الجملة الاسمية + الجملة المعطوفة

(مآذن الشام تبكي إذ تعانقني) + (وللمآذن كالأشجار أرواح)

⇩ ⇩ ⇩

(فعل مختار بعناية)(فعل مختار بدقة) (تشبيه يؤكد الصورة التي قبله)

والذي لاشك فيه أن مقدرة الشاعر تتضح من خلال ما يفرع من معان جديدة يجند لها حلو اللفظ ومتين الأسلوب ، وعليه تكون المفاضلة بين شاعر وشاعر " فالألفاظ لا تراد لأنفسها ، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني " (٨) .

وعلى هذا المنحى من النهج يقول نزار في قصيدة (تونس الخضراء):

يا تونس الخضراء جئتك عاشقا
وعلى جبيني وردة وكتاب
إني الدمشقي الذي احترف الهوى
فاخضوضرت لغنائه الأعشاب
أحرقت من خلفي جميع مراكبي
إن الهوى أن لا يكون إياب
أين اللواتي حببهن عبادة
وغيابهن وقربهن عذاب؟
اللابسات قصائدي ومدامعي
عاتبتهن فما أفاد عتاب
أحببتهن وهن ما أحببنني
وصدقتهن ووعدهن كذاب

أألحاســـــب امـــــرأة علـــى نســـــيانها
ومتى اســـتقام مع النســـاء حســـاب ؟ (٩)

تأمل الصور التي وردت :

(على جبيني وردة وكتاب) كناية عن المعرفة والمودة .

(إن الهوى أن لا يكون إياب) كناية عن التفاني في العشق .

(اللابسات قصائدي) استعارة مكنية تجسد المعنى وتبرز القصيد في ثوب قشيب .

هذه الصور المتتابعة تعطي حشدًا كبيرًا من المعاني يصبح القارئ إزاءها في حالة من التأمل والإعجاب .

ثم تأمل التضاد في قوله : وغيابهن وقربهن عذاب : فالغياب عذاب ، هذا معلوم ، لكن كيف يكون القرب عذابا ؟ ، إن خبر المبتدأ(عذاب) هو الذي أحدث هذا المعنى الرشيق .

أما الاستفهام التقريري في قوله : ومتى استقام مع النساء حساب ؟ فهو استفهام مناسب في موضعه ، إذ يكشف عن داخل المرأة وما تحمل من طباع ، وكذلك التعجب في قوله (ما أسخف العشاق لو هم تابوا) أكسب المعنى رشاقة وجمالا ، مع ملاحظة أن كلمة (أسخف) غير شاعرية

من هذا التأليف العجيب الذي يضم اختيارًا غير مسبوق للألفاظ في أساليب خبرية وإنشائية، وصور جديدة على الأسماع كان باعث الدهشة والإعجاب ، والذي قال عنه الجرجاني " وإنها لصنعة تستدعي جودة القريحة والحذق في أن يجمع الشاعر أعناق المتناظرات المتباينات في رابطة ويعقد بين الأجنبيات معا عقد

obeikandl.com

نسب وشبكة ، وما شرفت صنعة ، ولا ذكر بالتفضيل عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر إلى ما لا يحتاج إليه غيرهما " (١٠) .

وفي قصيدة : رثاء طه حسين تتجلى رشاقة الصور في قوله :

ضـــــوء عينيـــك أم همـــــا نجـــــمتان ؟
كلهـــــم لا يـــــرى وأنـــــت ترانـــــي
لســـت أدري مـــن أيـــن أبـــدأ بـــوحي ؟
شـــجر الـــدمع شـــاخ فـــي أجفـــاني
مـــا علينـــا إذا جلســـنا بـــركن
وفـــتحـــنا حقائـــب الأحـــزان
وقـــرأنا أبـــا العـــلاء قليـــلا
وقـــرأنا رســـالة الـــغفـــران
ارم نظـــارتيـــك مـــاأنت أعـــمى
إنمـــا نـــحـــن جوقـــة الـــعمـــيان
أيهـــا الأزهـــري يـــا ســـارق النـــار
ويـــا كاســـرا حـــدود الثـــواني
أنـــت أرضـــعتنا حـــليب التحـــدي
فـطـحـنـــا الـنجـــوم بالأســـنان (١١) .

تشكيل جديد غير معهود للصور :

فالدمع كالشجر يورق ويثمر ، والأحزان كثيرة كالحقائب وما تحمل والتحدي كالحليب يغذي وينمي ،ثم تأمل رشاقة الصياغة في قوله :(طحنا

obeikandl.com

النجوم بالأسنان) إذ يبرز التصوير أثر هذا العالم الجليل الذي امتد إلى ما أعقبه من أجيال المتعلمين ، وما أحدثه من ثورة في العلم والفكر.

إن هذا التشكيل اللغوي وما ترتب عليه من معنى أكسب التجربة حياة وقوة لأن "وظيفة اللغة هي التعبير الدقيق عن التجربة ، وأن الشاعر الذي يستخدم اللغة أداة لفنه يجب عليه أن يكون مسيطرا على الألفاظ. فاللغة تخلع شكلا غير متوقع على التجربة حينما تتبلور في صورة جديدة "(١٢) .

ولا شك أن جمال التصوير ينبع من صدق الإحساس ومعايشة التجربة وهذا ما نلمحه عند نزار في ثنايا قصيده ، مما جعل له نمطا تفرد به عن شعراء عصره ، ومعلوم "أن الصورة – داخل التشكيل اللغوي – لا تنفصل في دلالتها عن دلالات السياق العام التي تتآزر داخل البناء الفني للقصيدة حتى كأن الصورة مع سواها لمعات خاطفة في رحلة الشاعر لتبين عن معالم أخرى في الطريق (١٣) .

لذلك عاش شعر نزار بيننا ، نستمتع به ونتفيأ ظلاله كما استمتعنا بغيره من إبداع الشعراء عبر مسيرة شعرنا العربي ولينضم إلى غيره من شعراء العربية الفحول أمثال المتنبي والبحتري وشوقي وغيرهم ممن غرسوا تجاربهم الثرية في حديقة الشعر العربي الوارفة الظلال .

الهوامش

(١) الأعمال النثرية الكاملة :دار منشورات نزار قباني ،بيروت ١٩٩٩م ، المجلد الأول ص ١.

(٢) نفسه ص ٣ .

(٣) نفسه ص ٣.

(٤) نفسه ص ٢٨٦.

(٥) نفسه ص ٢٨٦ .

(٦) الأعمال الشعرية الكاملة : دار منشورات نزار قباني ، بيروت ١٩٩٩م ص ٦٤ .

(٧) دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٠.

(٨) أسرار البلاغة ، شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ط١،١٩٧٢،ص٨١ .

(٩) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١١٨ .

(١٠) أسرار البلاغة ، ص ١٢٢.

(١١) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٤٠ .

(١٢) الإحساس بالجمال . جورج سانتيا ، د / مصطفى بدوي ص ١٩٠ .

(١٣)تذوق النص الأدبي ، د / رجاء عيد ، دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة قطر ط١ ص ٥٦ .

obeikandl.com